

جرائم الأطفال

كثر الاهتمام بجرائم الصبيان في السنين الأخيرة للعلاقة بين أخلاق الصبي وأخلاق الرجل. فان الصبي المجرم يتخذ أسلوباً من العيش أو الكسب عن طريق التشرّد أو السرقة أو التكفّف أو الغش ينمو معه بالسنين ، فاذا صار رجلاً استقر هذا الأسلوب وأصبح عادته واتجاهه وموقفه من الحياة الاجتماعية ، فهو يمارس هذه الجرائم مع جرأة وتدير لم يكن يعرفهما وهو صبي ، وهو كلما ازداد خبرة بالدنيا استخدم هذه الخبرة في زيادة دربته ومهارته في الجريمة .

ولذلك يتجه الدرس لمعالجة الجرائم الى درس البيئة الأولى للصبيان ، أى العائلة والمدينة والمدرسة وعمل الصبي وفراغه ، وقد كان بحث الجريمة يتجه قبل نحو أربعين أو خمسين عاماً نحو درس الوراثة والزعيم بأن هناك طرازاً خاصاً من المجرمين يمكن التعرف عليه بشكل الرأس أو حجمه أو بركة الملامح أو غلاظتها أو غير ذلك من سمات الجسم أو الرأس ، ولكن هذا الرأى قد فند بدرس الجرائم وتعقب أصولها وبواعثها ، فان مما لاشك فيه أن الأسرة التى يكون فيها أحد الأبوين مجرماً ينشأ الطفل فيها وهو يرى أمام عينه هذه القدوة الحية فيتخذها أسلوباً للعيش .

بل هو عندما ينجح الى الجريمة لا يجد من هذين الأبوين رادعاً ثم هو عندما يسجن أحد أبويه يجد إهمالاً ، فاذا تطوحت نتيجة هذا الإهمال وقع بسهولة في الجريمة . ولذلك يمكن أن نقول إن أبناء المجرمين مجرمون أيضاً ليس بقوة الوراثة بل بقوة البيئة أى بالقدوة والتعليم والإهمال والفقر . وليس هناك طراز خاص للمجرم الصغير . فاننا نجد الصبي النشيط الذى تلمع عيناه بالذكاء كما نجد الحامل المترائى البليد . ونجد الملامح الوسيمة كما نجد الوجه الفليظ . فلا نستطيع أن نقول إن هناك طرازاً خاصاً للمجرمين صغارهم أم كبارهم . لأن الحقيقة أننا "نتكيف" بالوسط . وخاصة بالبيئة الأولى أيام الطفولة التى نتعلم فيها أسلوباً من العيش يلاننا سائر حياتنا .

وقد قيل إن المجريين يبدو عليهم نقص في الذكاء أو أنهم تحت المستوى المتوسط العام للذكاء . وفي هذا القول بعض الحق ولكن هناك بينهم أيضا أفرادا يتجاوزن هذا المتوسط بل يبلغون درجة النبوغ . ومن المعقول أن يؤدي نقص الذكاء إلى قلة الحيلة وتحقيق الآمال والرغبات بالطرق المشروعة فيعمد هذا الناقص إلى طرق شاذة قد اصطاحنا على أن نسميها جرائم . ولكن هذا النقص صغير القيمة جدا في وزن الميول الإجرامية . وأهم منه الخلل العاطفي عند المجريين . فإن للعواطف اتزاناً يتفق والحياة الصالحة في المجتمع . فإذا اختلت تعرض صاحبها للجريمة . مثال ذلك أننا جميعا نفضب ونشتهي الطعام ولكل منا صورة معينة من كرامته ونحو ذلك . فإذا اختلت عواطف أحدنا نحو واحدة أو أكثر من هذه الأشياء فإنه يصير مجرماً أو شاذاً .

ومما يدعو إلى اختلال العواطف أن يكون بالجسم نقصاً مولوداً أو مكتسباً يجعل الناقص يشعر بالهوان . وهو ما يسمى عند السيكلوجيين "مركب النقص" فإن الإحساس هنا يهبط في كل ما يمس الكرامة . أو قد تختل العواطف لاعتلال الغدة الصماء أو لاعتلال الصحة عامة . ففي كل هذه الحالات لا يستجيب الإنسان للوسط الاستجابة التي تنتظر من رجل سليم ويقل الانسجام بينه وبين المجتمع فيشد أو ينشر حتى يقع في الإجرام .

والمادة أن الصبي الذي ينشأ في حضن أبوين مستقيمين يجد منهما النصيحة ثم القدوة ثم الرادع . فهما يجبان الاستقامة ويطلبانها في ابنهما . فإذا وجدا منه انحرافاً نصحا . ثم هو لا شك يقتدى بسلوكهما وينشأ على غرارهما . فإذا لم يجد النصيحة والقدوة فإن مثل هذين الأبوين لا يتأخران عن ردهه بالعصا . وعلى أي حال نجد أن النتيجة أن الصبي سيأخذ بأخلاقهما في الاستقامة . ويحدث تقيض هذا في الصبي الذي ينشأ بين أبوين مجرمين أو يميل أحدهما إلى الإجرام .

ولكن ليس من الضروري أن يجرم الأبوان أو أحدهما لكن ينشأ الصبي على الجريمة . فإن الصبي قاصر يحتاج إلى الإرشاد وهو ينظر إلى من يكبرونه نظرة الاحترام ويسمع لنصيحتهم ويعمل بها . فإذا فقد هذا الإرشاد وهذه النصيحة فإنه يعتمد على نفسه فيخطئ هنا وهناك . وقد لا يجد من يقوم سلوكه . وهذا هو الغالب في العائلة التي فشا فيها الشقاق بين الزوجين

أو التي هجر فيها الزوج زوجته إما بالإهمال وإما بالطلاق . فإن الصبي لا يجحد من معنى به ويرشده فيفضل . ومعظم الصبيان في الإصلاحات قد نشأ في عائلة قد فشا فيها الطلاق أو هجر الزوج فيها زوجته .

ثم هناك الشارع والمدينة ، فإن بعض الأحياء يكثر فيها أبناء الفقراء الذين تحملهم الفاقة على التبعيل ، فهنا صبي قد تعلم السؤال والتكفف وادعاء الجوع ، وهناك آخر يخرج من البيت قاصدا إلى المدرسة فيقضى وقته في التسكع ويعود في ميعاد الغداء إلى بيته كأنه قد عاد من المدرسة ، وهناك مؤامرات صغيرة يعقدها الصبيان في البيئات الفقيرة لكي يسرقوا شيئا تأفها أولئك يجمعوا على حديقة ، ففي هذه البيئات يتعلم الصبي أسلوبا جديدا من السلوك يشق عليه بعد ذلك أن يتخلص منه .

فاذا أردنا أن نتق جرائم الصغار — وباتقائها نتق جرائم الكبار — فانه يجب قبل كل شيء أن نعمل على ترقية الوسط العائلي ، فإن الزوج الجائع المتعطل أو السكير المرعب يخلق جوا سيئا في العائلة كله مغاضبة ونكدا وبكاء وكرامية ، والصبي الناشئ في هذا الوسط يكرهه وقد يفر منه أو هو يؤثر عليه الشارع وما فيه من تسلية مع صبيان آخرين يفتحون أمامه أبواب الفساد ، فتعطل الزوج من أقوى الأسباب لشروء الصبيان وإحرامهم ، لأن الزوجة تبغم بالزوج المتعطل ويكثر الشجار بينهما ، وسوء الطعام وأوقاته تجعل الصبي ينجح إلى الشارع . وكذلك المدرسة السيئة التي لا يحبها الصبي ، فانها تجعله يشرد في الشوارع ويتعرف إلى زملاء سوء ويدبر ذهنه الصغير طرق المواربة للهرب من سؤال أبيه عن دروسه ، وكذلك الشارع السيء .

فمكافحة الإحرام في الصبيان تقتضى :

(أولا) ترقية العائلة وضمان العمل والكسب للأب .

(ثانيا) مكافحة الطلاق .

(ثالثا) السكنى في بيئة حسنة حيث يعيش الصبيان المستقيمون .

(رابعا) يجب أن تغرى المدرسة الصبي ولا تصده بنظام قاس أو دروس مرهقة .

(خامسا) يجب إيجاد أندية للصبيان يقضون فيها أوقاتهم تحت إشراف معلمين .